

ملخص:

تحتوي بعض الاضرحة الجناززية الليبية- البونية على ملحقات عقائدية خاصة بممارسة الشعائر والمعتقدات تطورت من كوة بسيطة الى أرضية كبيرة مبلطة ذات أروقة واسعة تقابل المعلم. كما عرفت المجتمعات القديمة طقوسا جناززية متنوعة مارستها داخل القبور والاضرحة.

الكلمات المفتاحية :

عمارة جناززية، ممارسات عقائدية، قبر البازينا، لبيي- بوني، أمازيغي.

وصل الفينيقيون إلى شمال إفريقيا قبل الاحتلال الروماني بقرون عديدة. تركز وتمحور وجودهم في هذه المنطقة على الشريط الساحلي للبحر المتوسط فقط، دون التوغل إلى المناطق الداخلية التي لا نجد فيها أي أثر مادي يدلنا على ذلك. هذا لم يمنعهم من توطيد علاقات حسنة مع المجتمع الإفريقي، ذلك بمنطق اقتصادي تبناه الفينيقيون حيث كانوا في الأصل تجارا محترفين.

إلى جانب ذلك لعب التواجد القرطاجي الذي يأخذ عوامله الحضارية من المفهوم الفينيقي دوره التأثيري أيضا على المفهوم الحضاري المحلي الليبي، هذا المزج من العوامل والمفاهيم والتأثيرات الحضارية المتوسطية أنتج مفهوما جديدا في هذا النطاق تمثل فيما يسمى بالحضارة الليبية البونية.

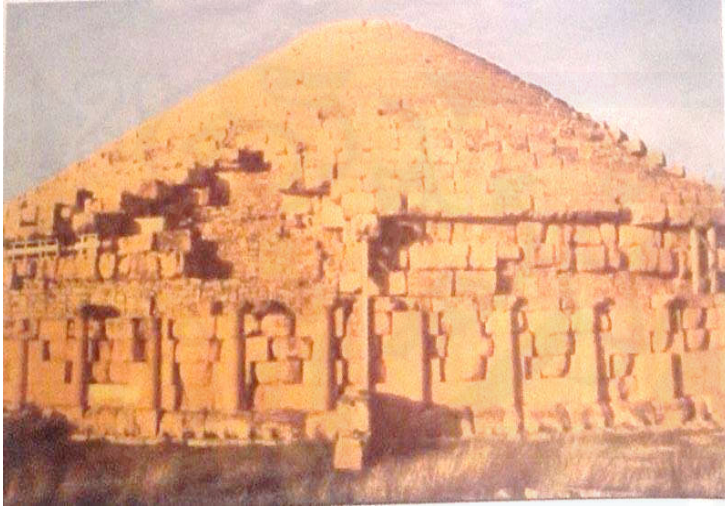
يلاحظ جليا وجود معالم ذات أصل إفريقي محلي خارج الأراضي القرطاجية تؤرخ بالفترات التي تسبق الوجود الروماني في شمال إفريقيا، ذلك ما يعرف خاصة بالمباني ذات الوظائف الجناززية والتي تعرف أيضا بانتسابها إلى العائلات الملكية النوميدية والمورية. يتمثل ذلك في الأضرحة الضخمة ذات الأبعاد المبالغ فيها والعمارة الراقية التي تدلنا بكل وضوح عن درجة الرقي الحضاري والقوة والنفوذ السياسي الملكي سواء داخل المجتمع الإفريقي المحلي أو على نطاق الحضارات المنتمية للبحر المتوسط. حتى وإن كنا لا نعرف شيئا عن الإقامات الملكية كالقصور مثلا والتي تشير إليها المصادر الأدبية القديمة في وصفها لبعض المدن الكبرى المعروفة مثل "سيفا" Siga "كيرتا" Cirta – "بولا – ريجيا"، "زاما" إلخ، كما

أننا لا نعرف حتى الآن أي شيء عن الأملاك العقارية والأراضي التابعة للعائلات الملكية في تلك الفترة.

وما نعرفه حتى الآن في هذا المجال والمؤكد منه، هو أن معظم المعالم الجنائزية الملكية المعروفة، لم تبني في أماكنها المتواجدة فيها بالصدفة، وإنما تتواجد على أماكن مركزية للأراضي الملكية بمثابة ختم مميز لها فاخترت هذه البقع عمدا لأسباب استراتيجية. فقد شيدت معظمها في فترات حكم أكبر الملوك والحكام النوميدي أي ما بين ٢٠٢ ق-م إلى ١٤٨ ق-م حينما مارست المملكة النوميديّة توسعا كبيرا من الحدود الشرقية للأراضي المورية إلى غاية الإقليم التريبوليتاني.

هذه المعالم يمكننا التعرف عليها ، ونذكر على سبيل المثال ضريح:

أ. امدغاسن الذي يعتبر أقدم ضريح لهذه المجموعة الجنائزية والذي يتمثل في بناية ذات شكل مخروطي مؤلفه من درجات تعلو قاعدة اسطوانية مزينة بستين عمودا على الطراز الدوري، و ثلاثة أبواب وهمية بنيت بالحجارة المصقولة مثبتة فيما بينها بواسطة مخالب من الرصاص^١. من ناحية الأبعاد فإن إرتفاع الجزء الأسطواني المكون لقاعدة المبنى فيبلغ حوالي ٤,٤٣ م وقطره يعادل ٥٨,٢٥ م، وارتفاعه الإجمالي يساوي ١٨,٣٥ م. (صورة رقم ١).

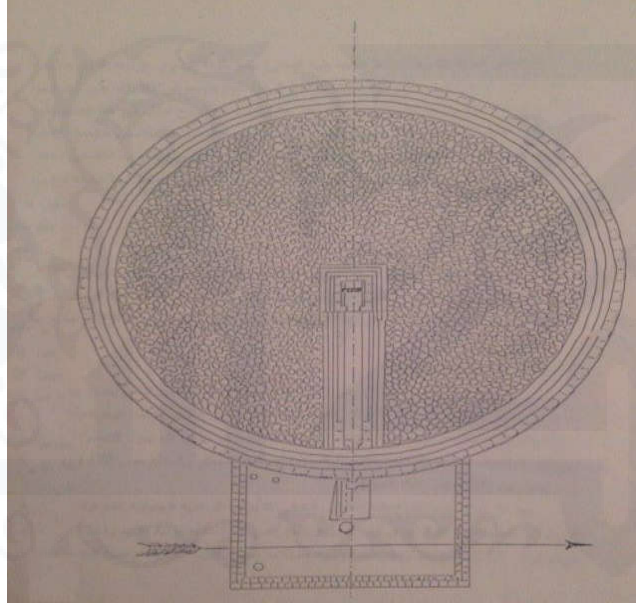


(صورة رقم ١) ضريح إمدغاسن

Lancel (S), l'Algérie antique. Paris 2003

1- Camps (G), Nouvelles Observations, sur l'âge, et l'architectures du Medracene, Mausolée Royal de Numidie, CRAI, 1973, p : 489.

أما المدخل فقد فتح في الجهة الشرقية فوق الأسطوانية عند مستوى الدرجة الثالثة من الجزء المخروطي^٢ ويؤدي إلى سلم ذو ١١ درجة الذي يفتح بدوره على رواق عريض يؤدي إلى الغرفة الجنائزية التي تتوسط المبنى (مخطط رقم ١). يوجد في الجهة الشرقية المقابلة لفتحة الباب ساحة مبلطة، يبلغ طولها ٢٥ م، وعرضها ٤ م.

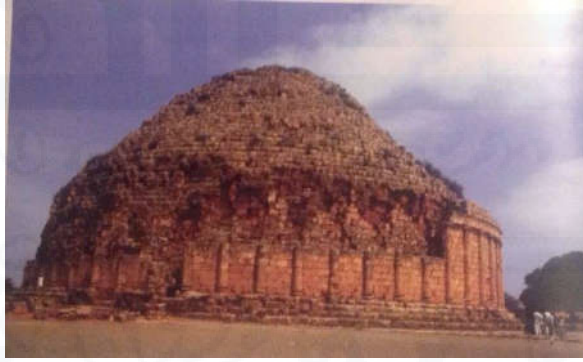


(مخطط رقم ١) مخطط إمدغاسن
Camps (G)

يدفعنا هذا المبنى الأمامي إلى القول أن هذه المساحة المسطحة تكتسي طابعا عقائديا. لقد شيد هذا المعلم بنهاية القرن الرابع ق. م أو بداية القرن الثالث ق. م.

ب. الضريح الملكي الموريطاني الذي يتميز بشكل أسطواني أيضا ومتوج بمخروط متدرج، انجز بالحجارة الكبيرة المصقولة. زينت الأسطوانة بستين عمود من الطراز الأيوني وأربعة أبواب وهمية متواجدة في الأقطاب الأربعة (صورة رقم ٠٢).

2- Ibid, Monuments et Rites, Funéraires Protohistoriques. Paris 1961, p:201.



(صورة رقم ٢) الضريح الملكي

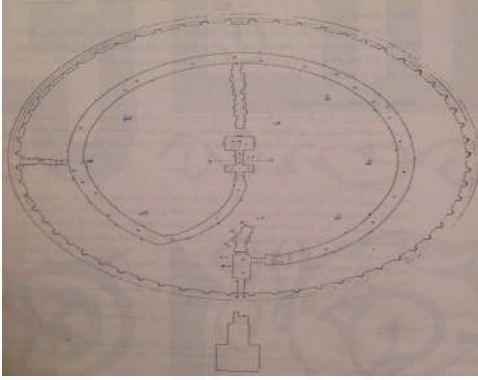
Lancel (S)

أما بالنسبة للأبعاد فإن الضريح الملكي الموريطاني ذو مقاييس جد معتبرة مقارنة بضريح إمدغاسن، حيث يبلغ ارتفاعه حاليا ٣٣ م ويبلغ قطر الأسطوانة ٦٤ م. أما الهيكل الداخلي فيتميز بمدخل موجود تحت الباب الوهمي الشرقي، يؤدي إلى ممر ضيق يفتح على غرفة كبيرة أبعادها ٥,٣٠ م طولا و ٢,٥٢ م عرضا و ٣,٢٠ م ارتفاعا، سميت ببهو الأسود. تؤدي هذه الغرفة إلى ممر ثاني ضيق طوله ٢,٠٨ م وعرضه ٠,٨٤ م وعله لا يتجاوز ١,٢٣ م، ينتهي بسلم من ٧ درجات يصل إلى رواق دائري يبلغ طوله ١٤٩ م وعرضه يصل إلى ٢,٠٤ م، وعلوه ٢,٤٢ م^٣.

يرسم هذا الرواق دائرة تكاد تكون كاملة حيث تنطلق من الباب الشرقي، تمر على الأبواب الوهمية الشمالية والغربية ثم الجنوبية، وعند إقترابها من نقطة الإنطلاق تنحني نحو مركز المبنى حيث توجد الغرفة الجنائزية (مخطط ٢)^٤. وتقابل المبنى ساحة مبلطة (صورة رقم ٣).

3 -Christofle (M), le Tombeau de la Chrétienne. Paris 1951. P : 24.

4 -Berbugger (A), Tombeau de la Chrétienne. « Revue Africaine ». N° 11. 1866-1867. PP : 97-101.



مخطط رقم ٢ الضريح الملكي الموريطاني

Camps (G)



(صورة رقم ٣) الساحة العقائدية المبلطة

Lancel (S)

بناء على بعض العناصر المعمارية التي يمكن تأريخها بالقرن الرابع والثاني ق. م. (مثل قواعد الأعمدة التي هي من الطراز الأتيكي والتي استعملت بكثرة في رسوم الأنصاب الفينيقيّة التي تعود للقرنين الثالث والثاني ق. م.)، يمكن القول - مع التحفظ - أن هذا الضريح قد سبق عهد الملك يوبا الثاني، وبذلك يمكن نسبته لملك أمازيغي آخر نظرا لحجمه الضخم وجمال زخرفته.

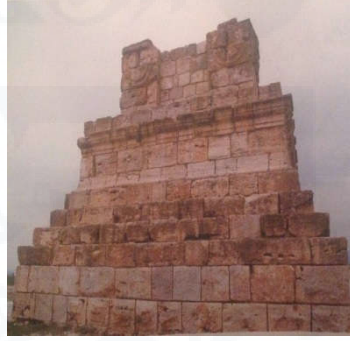
أما المعلم الثالث فيتمثل في ضريح الخروب الذي يختلف في شكله عن المعالم السابقة فهو ينتمي إلى مجموعة المعالم الهرمية (صورة ٤ - شكل ١) وينسب إلى الملك ماسينيسا^٥

5 - Pomponius Mella, de Situ Orbis. Trad. Berbrugger « Rev .Afr », N° 11 1967.P : 100.



(شكل ٠١) إعادة تصور ضريح الخروب

Cherbonneau



(صورة ٠٤) ضريح الخروب

Lancel

الإشكالية القائمة دائما فيما يخص هذه المعالم، هي عدم إمكانية تحديد هوية الأشخاص الذين كرسوا من أجلهم هذه المعالم المدفونين فيها. أما تأريخها فيبقى دائما نسبي نظرا لعدم توافر العناصر الأثرية والوثائق الكافية التي تسمح بإقامة دراسة تأريخية. والشيء القليل والضئيل من الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه هنا وهناك، لا يسمح لنا بإقامة دراسة شاملة في هذا الشأن، إلا الجانب المعماري الذي يمكننا من خلاله الاقتراب من مرحلة معينة من التأريخ التقريبي.

بغض النظر عن نص «بومبونيوس - ميلا» (القرن الأول ق. م)^٦ الذي يتحدث فيه عن الضريح الملكي الموريطاني، فلا يوجد أي مصدر آخر يشير إلى هذه الأضرحة.

وتتحدّر المعالم ذات القاعدة الأسطوانية من قبور البازينات التي تعود لفجر التاريخ، والتي تأثرت بشكل مباشر بالحضارات المتوسطية خاصة في غطائها المعماري الخارجي وتقنياتها في البناء. أما الأضرحة التي تتميز بقممها الهرمية فقد اتفق كل الباحثين أنها تعود بأصلها إلى العمارة المحلية الإفريقية مع وجود شيء من المزج المعماري المتوسطي الشرقي والبنوني.

6 - Cherbonneau (A), le Mausolée du Khroub, Annuaire de la Province de Constantine. 1862 P: 18.

ويفترض أن هذه البناءات شيدت بأيدي إغريقية أو رومانية نظرا لتواجد بعض العناصر المعمارية مثل (تيجان الأعمدة، الأبواب الوهمية، الكورنيش، الإفريز....)، التي استوردت من صقلية الاغريقية^٧.

أما المفهوم البوني فهو وليد التقاء مفهومين حضاريين، شرقي وإفريقي، لذا لم تكن الممارسات والتقاليد البونية غريبة عن أوساط المجتمع الإفريقي، بل كانت عنصرا حيا مشكلا ضمن الأسس العامة القائم عليه. لذا من المنطق أن لا نتحدث عن "تأثير خارجي بوني" فيما يخص المعالم المحلية. كما نلاحظ أن معظم المعالم الرئيسية والمسماة بالبنونية تتواجد خارج الأراضي القرطاجية، كما تعتبر المملكة النوميديّة هي المحافظة الوفية للحضارة البونية بعد سقوط قرطاجة^٨.

ومن بين الأضرحة العديدة والمعروفة بإفريقيا الشمالية، نجد البعض منها يعود إلى مرحلة متأخرة، إذ يمكن تأريخها بالفترة الممتدة ما بين القرن الرابع والقرن السابع الميلادي. هذه المباني المتأخرة تتميز بالتشابه الكبير الذي يربطها بتلك المعالم والمباني التي تعود إلى فترة ما قبل التواجد الروماني بشمال إفريقيا، إذا مبدئيا نجد معظم الخصائص المعمارية تنقسم وتشتبك بين المجموعتين ذلك رغم الفارق الزمني الذي يبعد بينهما بحوالي أربعة قرون على الأقل.

وأول إشكال يمكن طرحه في هذا النطاق هو ذلك الفراغ الملحوظ في الإنجاز المعماري الإفريقي الأمازيغي خلال المرحلة الرومانية؟ هل هذا راجع لكون الأفارقة القدماء قد تبنوا النمط المعماري الروماني إلى درجة أننا لم نستطع الفصل بين أضرحتهم والأضرحة الرومانية؟ أم أن العائلات الملكية النوميديّة والمورية التي كانت تشيد الأضرحة هاجرت إلى أفاق أخرى؟

ظهور هذه الأضرحة من جديد إبتداء من القرن الرابع الميلادي يعد هو الآخر لغزا بالنسبة لنا. بالرغم من إنتسابها إلى فترة متأخرة فإن هذه الأضرحة كما سبق وأن أشرنا تشبه إلى حد كبير أضرحة الممالك النوميديّة والمورية. فلماذا هذا الرجوع إلى الوراثة؟ علما بأنه لا يسجل أي تطور معماري^٩. وذلك طبقا للدراسات التي أجراها علماء الآثار الذين قاموا بالتنقيب وأعمال الحفائر في محيط هذه الأضرحة^{١٠}.

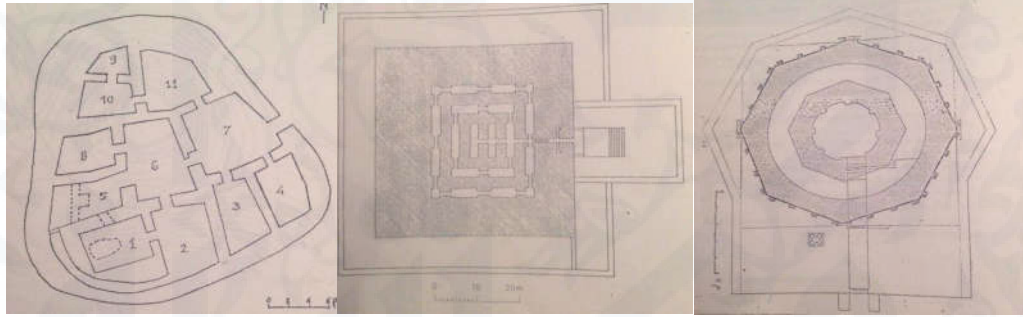
7 - Rackob (F), « Architecture royale de Numidie », Actes du Colloque International par le CNRS et L'école Française de Rome, Rome 1980 P : 326.

8 - Camps (G), Réflexion sur la Pénétration de la Civilisation Punique en Numidie. Paris 1974. P : 36.

9 - Camps (G), Aux Origines de la Berbérie, Monuments et Rites Funéraires Protohistoriques. Paris 1961. P : 207.

10 - Campardou (J), Notes Archéologiques sur la Région de Taza. Bull. De la Soc. De Géographie et d'archéologie d'Oran . TXLI, 1921 PP : 173-195.

تتمثل هذه المجموعة من المعالم في ضريح القور (بالمغرب الأقصى)، (القرن ٧م) ضريح بلاه قيتون المتواجد بولاية بومرداس (القرن الثالث م). (مخطط رقم ٣) وأضرحة الجدارات (القرن ٥ و ٧م) بولاية تيارت، (مخطط رقم ٤) وضريح تين هنان بولاية تامنراست (القرن ٤ م)، (مخطط رقم ٥).



(مخطط رقم ٥)

ضريح تين هنان

(مخطط رقم ٤)

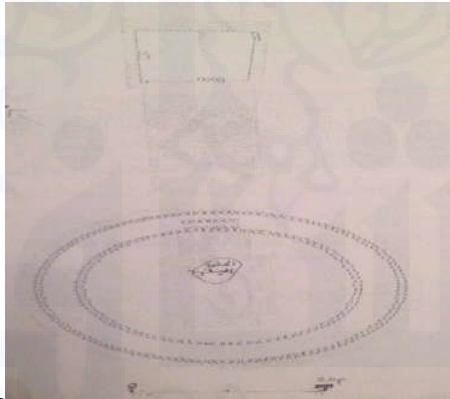
ضريح الجدار (ج)

(مخطط رقم ٣)

ضريح بلاد قيتون

Camps (G), Aux Origines de la Berbérie, Monuments et Rites Funéraires Protohistoriques. Paris 1961. P : 207.

وقد وقع إختيارنا عبر هذه الدراسة على ضريح القور، الذي يتميز بشكله الدائري، يبلغ قطره ٤٠ م، ومتوج بقمة مدرجة. إرتفاعه لا يتعدى ٥ م. تتوسطه حفرة طولها ٦ م وعرضها ٥ م (مخطط رقم ٦). تقابل المعلم مساحة مربعة الشكل تقريبا (١٢,٧٠ x ١٢,٤٥ م). أرخ بالقرن السابع م^{١١}.



(مخطط رقم ٦) ضريح القور

Camps (G)

11 - Camps (G), le Gour, Mausolée Berbère du 7eme Siècle. Antiquité Africaine, t : 8, 1974. P : 74.

والاشكالية القائمة هي أن الباحثين الذين درسوا هذه المعالم لم يلاحظوا فيها أي تطور معماري ، نفس الظاهرة لاحظناها في صنع الفخار الليبي الذي إستمر في شكله وزخرفته إلى يومنا هذا.

مارست الشعوب القديمة بشمال إفريقيا، وعبر كل الأزمنة، طقوس وممارسات جنازية على شكل حفلات تقام في أماكن مخصصة لذلك. إما داخل تلك المعالم أو في ملحقاتها، المتمثلة في المباني المسطحة المقابلة للمعلم.

هناك بعض المعالم التي ترجع إلى نهاية العصر الحجري الحديث، تحمل تهيئات عقائدية مثل قبور التلال التي تحتوي على مقصورة أو كوة. قد لوحظ تطورا كبيرا لهذه الأماكن العقائدية الجنازية عبر الزمن، وتحولت المقصورة والكوة إلى أرضية فسيحة مبلطة ذات أروقة واسعة أو غرف جنازية وتتبع هذه الملحقات العقائدية نفس إتجاه المعلم. يلعب هذا الإتجاه دورا اوليا في ممارسة هذه العقائد باحترام الإتجاه الشرقي المقدس. لوحظت هذه العناية الفائقة في إحتراما لإتجاه منذ فترة قبور التلال.

أما بالنسبة للطقوس الجنازية فلا أحد يشك في مكانتها عند شعوب الحضارات القديمة، فقد مارستها كل المجتمعات ولكن بطريقتها الخاصة، كما لعب أيضا مفهوم القدر الأبدي للجسد والروح دورا أساسيا في ميلاد وتطور الطقوس الجنازية، فمن خلاله عرفت هذه المجتمعات أساليباً مختلفة للدفن (الدفن العادي بأشكاله ووضعياته المختلفة، الوضعية الممددة على الظهر، الوضعية المنطوية، ووضعية الجنين). كما مارسوا عملية حرق الجثة وكان على شكلين، الحرق الكلي أو الترميد، والحرق النصفى (Décharnement). فقد وجدت كل هذه الطقوس الجنازية في ممارسات الشعوب القديمة في شمال إفريقيا.

كانت هذه المجتمعات لا ترى في الموت نهاية تامة، بل كانت مقتنعة بوجود حياة أخرى بعد الموت يحتفظ فيها كل شخص بشخصيته ومظهره الخارجي، لقد فكر الإنسان القديم في حيل إن صح التعبير تقابل الأثر المادي للموت الذي يدمر الجسد. فقام المصري بتحنيط الجسد لتحافظ الجثة على مظهرها الخارجي، أما الفينيقي فقد أعطى للمظهر الجسماني الأدمي صورة تنحت على غطاء التابوت الذي يحمي الجثة، والتي أسماها هيرودوت^{١٢} بصناديق المومياءات . فبذلك إتجه تفكير المجتمعات القديمة نحو ضمان الاستمرارية للجسد والروح بعد الموت ولو لمظهره الخارجي على الأقل.

12 - hérodote, LXXXVI, 5, : Tombes puniques de Carthage, Benichou-Safar. Tunis 1980. P : 135.

ثم وضع في متناول الميت كل ضروريات الحياة، ما يفسر لنا وجود أثاث جنازي داخل هذه المدافن القديمة، ترافق الميت، ويتشكل عادة في فخاريات (أطباق وأواني مختلفة الأحجام والاستخدامات...) وبعض الحلي والأمتعه وحتى الأسلحة.

كما كانت تقام ولائم جنازية كبيرة، يضحى فيها بالحيوانات في أماكن مخصصة لذلك والتي تتمثل في التهيئات العقائدية المبنية لهذا الغرض.



الممالك النوميدية (انتشار المعالم الجنائزية)

Lancel (S) l'Algérie antique. Paris 2003.

1. Berbugger (A), Tombeau de la Chrétienne. Revue Africaine N° 11. 1866-1867.
2. Campardou (J), Notes Archéologiques sur la Région de Taza. Bull. De la Soc. De Géographie et D'archéologie d'Oran . T: XLI, 1921.
3. Camps (G), Aux Origines de la Berbérie, Monuments et Rites Funéraires Protohistoriques. Paris 1961.
4. Camps (G), le Gour, Mausolée Berbère du 7eme Siècle. Antiquité Africaine, t : 8, 1974.
5. Camps (G), Nouvelles observations, sur L'âge et L'architecture du Médracene, Mausolée Royale de Numidie. Dans CRAI, 1973.
6. Camps (G), Réflexion sur la Pénétration de la Civilisation Punique en Numidie. Paris 1974.
7. Cherbonneau (A), le Mausolée du Khroub, Annuaire de la Province de Constantine 1962.
8. Christofle (M), le Tombeau de la Chrétienne. Paris 1951.
9. Hérodote, LXXXVI, 5, : Tombes Puniques de Carthage, Benichou-Safar. Tunis 1980.
10. Pomponius Mella, de Situ Orbis. Trad. Berbrugger, Revue. Africaine N° 11. 1967.
11. Rackob (F), « Architecture Royale de Numidie », Actes du Colloque International par le CNRS et L'école Française de Rome, Rome 1980.

Funerary building and Libyan-Punic ideological practices

Farida AMROUS*

abstracte:

Some funerary Libyan-Punic shrines contain special ideological accessories to practice rituals and beliefs; it has evolved from simple niche to a large tiled floor with wide corridors and facing the monument. Ancient societies knew a variety of funerary rituals practiced within graves and tombs.

Key words:

Funeral architecture, Practice of worshipm , Bazina tomb ,Lybico-punique, Amazigh

* Lecturer _A_ : Archéology Institute university Algiers II faridass2@hotmail.com